دورُ منظَّماتِ المجتمعِ المدنيِّ في السَّيطرةِ وتوجيهِ أدواتِ التَّرفيهِ الأهدافُ والتداعياتُ

■ سناء عزوز[1]

ملخّص

يتناولُ هذا البحثُ بالدِّراسةِ والتَّحليلِ الدورَ المتزايدَ لمنظَّمات المجتمعِ المدنيِّ في توجيهِ أدواتِ التَّرفيهِ ووسائلِ التواصلِ الاجتماعي، ضمنَ إطارٍ أوسعَ منَ التحوُّلاتِ الثَّقافيةِ العالميةِ. ويسلِّطُ الضوءَ على الأدوارِ النَّاعمةِ التي تتولَّاها هذه المنظَّماتُ في إعادةِ تكوينِ الوعيِ والذَّوقِ العام، لا سيَّما في المجتمعاتِ المحافظةِ من خلالِ الشَّراكاتِ مع منصَّاتٍ مثلَ نتفليكس (Netflix)، وتيكتوك (TikTok)، ودعمِ محتوىً يتبنَّى مفاهيمَ مثلَ الجندرة، والحريَّة الفرديَّة، والتنوُّع القيمي.

يركِّزُ البحثُ في أنَّ التدخُّلَ الثقافيَّ ليس عفويًّا، بل يرتبطُ بشبكاتِ تمويلٍ دوليةٍ ويعتمدُ على أدواتٍ رقميَّةٍ مؤثِّرة مثل الخوارزميات، والمحتوى القصير، ما يؤدِّي إلى تحوُّلاتٍ تدريجيَّةٍ في القيمِ لدى فئاتِ الشبابِ وانقساماتٍ مجتمعيةٍ متزايدة. ويخلصُ البحثُ إلى أن هناك أهدافًا ضمنيَّةً وراءَ الخطابِ الحقوقي، تتعلَّقُ بإعادةِ هندسةِ الوعيِ المحليِّ وتذويبِ الهُويَّاتِ الجمعيَّة. كما يناقشُ البحثُ التداعياتِ المجتمعيَّةَ والسياسيةَ من ردودِ أفعالٍ رافضةٍ، وصولًا إلى ردودِ أفعالٍ حكوميةٍ بين التطبيعِ والممانعةِ.

الكلمات المفتاحية: منظَّمات المجتمعِ المدنيِّ، الهيمنةُ الثقافيةِ، وسائلُ التواصلِ الاجتماعي، القوَّةُ الناعمةُ، التَّرفيهُ الرقميُّ، الجندرة، الهُويَّة الثقافيةُ، الخطابُ الحقوقيُّ.

1 - باحثة اجتماعية، تونس.

المقدمةُ

شــهد العالمُ منذ تســعينيَّات القرن العشرين تحوُّلاً نوعيًّا في طبيعة أدوار منظَّمات المجتمع المــدنيِّ (CSOs)؛ إذ لم تعد هــذه المنظَّمات تقتصر على العمل في المســارات التقليديَّة، مثل تقديــم الخدمات الاجتماعية أو دعم الحرِّيات السياســية، بل توسَّــعت تدريجيًّا نحو مجالات أكــثر تأثيراً في تكوين الوعــي والثقافة العامة، مــن بينها الإعلام، والترفيــه، ومنصَّات التَّواصل الاجتماعي. وقد ترافق هذا التوسُّــع مع تغيُّرٍ في بنيــة التمويل والدَّعم الدَّولي لهذه المنظُّمات؛ إذ بدأت أطراف فاعلة على المســتوى العالمي، مثل الحكومات الغربية، والمؤسَّســات متعدِّدة الجنســيات، ومراكز الأبحــاث الكبرى، في توجيه موارد ضخمة لدعم منظَّمات تشــتغل ضمن مخطَّطات ثقافية وقيميَّة محدَّدة، لا سيما في الدول والمجتمعات المصنَّفة على أنها "محافظة" أو "تقليديَّة".

لقد أصبحت أدوات التَّرفيه الرقميِّ ووسائل التواصل الاجتماعي ساحةً مركزيةً للصِّراع الثقافي؛ حيــث يُعاد من خلالها إنتــاج المفاهيم، وإعادة تعريف ما هو "طبيعــي" أو "مقبول اجتماعيًّا". وفي هذا السِّياق، برز دور منظَّمات المجتمع المدنيِّ بوصفها فاعلاً محوريًّا في عمليَّات التَّوجيه الثقافيِّ النَّاعم، عبر حملات منظَّمة، شراكات إعلاميَّة، ودعم إنتاج محتوى فنيٍّ وترفيهيٍّ يُسهم في إعادة تكوين الذَّوق العامِّ ونمط التفاعل الاجتماعي، وغالبًا ما يجري ذلك تحت شــعارات الحرِّية، التنوُّع، والانفتاح.

تنبع إشــكاليَّة هذا البحــث من هذا التحوُّل النوعــيِّ في أدوار المنظَّــمات المدنيَّة؛ إذ يُطرح التساؤل الجوهري: هل تُستخدم منظمات المجتمع المدني باعتبارها أدوات لتوجيه الذوق العام وفرض منظومات قيميَّة جديدة؟ وإذا كان الجواب بالإيجاب، فما طبيعة هذا التَّوجيه؟ ومن يقف خلفه؟ وما انعكاساته على المجتمعات المستهدفة؟

إن أهمِّية هذه الدِّراسة تنبع من حساسيَّة الموضوع وتشابكه مع قضايا الهُويَّة الثقافية، والسيادة المعرفيَّة، والأمن القيمي. فالتدخُّلات الناعمة عبر الترَّفيه ووسائل التواصل الاجتماعي لا تقلُّ أثرًا عن التدخُّلات السياسية أو الاقتصادية المباشرة، بل قد تكون أكثر فاعلية وعمقًا؛ لأنها تستهدف البنية النفسية والثقافية للفرد، لا سيما في الفئات العمريَّة الشَّابة. كما أن هذه الظَّاهرة تثير أسئلة خُلُقيَّة وسياسيَّة عن حدود تأثير المنظَّمات غير الحكومية، واستقلاليتها الفعليَّة عن الجهات المموَّلة.

فما طبيعة تدخُّل منظَّمات المجتمع المدنيِّ في إنتاج المحتوى الترفيهيِّ والرقمي وتوجيهه؟ وما الأهداف المعلنة والمضمرة لهذا التدخُّل؟ وكيف يُسهم هذا التدخُّل في إعادة تكوين المفاهيم الثقافية والاجتماعية في المجتمعات المستهدفة؟ وما التداعيات الممكنة على القيم التقليديَّة والهُويَّة الجمعيَّة للمجتمعات المحافظة؟

نسعى في هذا البحث إلى إماطة اللِّثام عن البنية الخفيَّة للتدخُّلات الثقافية عبر واجهات تبدو "مدنيَّة" و"غير حكومية"، قد تخفي في أحيان كثيرة ارتباطات سياسية واستراتيجية عابرة للحدود. ومن خلال هذه الدراسة، نسعى لتقديم فهم شامل للأدوات، والأهداف، والنتائج المتوقَّعة لهذا التوظيف المكثَّف لأدوات الثقافة الرقميَّة والترفيه من قبل منظَّمات المجتمع المدني في عالمنا المعاصر.

أوَّلًا: الإطارُ النَّظريُّ والمنهجيُّ

يتطلَّبُ تحليل الدور المتنامي لمنظمات المجتمع المدني في المجال الثقافي والرقمي فهمًا دقيقًا للمرتكزات النظرية التي توضح كيفية تشكُّل السلطة الرمزية، والتأثير الأيديولوجي في المجتمعات المعاصرة. وفي هذا السياق، تتقاطع أربع نظريات رئيسة توضح البنية الفكرية لهذا التدخُّل، وهي:

١ - نظريَّةُ الهيمنةِ الثقافيةِ، (أنطونيو غرامشي -Antonio Gramsci)

طرح المفكِّر الماركسيُّ الإيطالي (أنطونيو غرامشي) مفهوم "الهيمنة الثقافية" (Cultural Hegemony) في كتاباته خلال سجنه في ثلاثينيات القرن الماضي. يرى (غرامشي) أن السلطة

السياسـية لا تستند فقط إلى القوَّة القسريَّة للدولة، بل تعتمد بشـكل أكبر على بناء توافق ثقافي وأيديولوجـي داخل المجتمـع، عبر مؤسَّسـات "المجتمع المـدني" كالإعـلام، والمدارس، والكنيسـة، والنقابات، أي تلك الفضاءات التي تبدو "محايدة" أو "مدنية"، لكنها تُنتج المعايير والمفاهيم التي تخدم القوى المسيطرة سياسيًّا واقتصاديًّا[1]. وفي سياقنا المعاصر، تُعدُّ منظمات المجتمع المدني أدوات معـاصرة لهذه الهيمنة، خصوصًا حين تعمـل في حقل الثقافة الرقمية والترفيه، وتسهم في «تطبيع» قيم وسلوكيَّات معيَّنة، من خلال خطاب يبدو تقدميًّا وإنسانيًّا، فيما يُعيد إنتاج علاقات الهيمنة بأشكال ناعمة وخفيَّة.

٢ - نظريَّةُ القوَّةِ النَّاعمةِ، (جوزف ناي-Joseph Nye)

قدَّم (جوزيف ناي)، أستاذ العلوم السياسية في جامعة هارفارد، مفهوم "القوَّة النَّاعمة" (Soft Power) في مطلع التسـعينيَّات، ليشرح قـدرة الدول على التأثير في سـلوك الآخرين ليس عبر التَّهديد أو القوَّة العسكرية، بل من خلال الجذب الثقافي والقيمي، باستخدام وسائل مثل الفن، والإعلام، والتعليم، ومنظَّمات المجتمع المدني[2].

وفق هـذا المنظور، تتحوَّل منظَّمات المجتمع المدني إلى أدوات اسـتراتيجية ضمن سياسـات خارجية ناعمة، لا سيما حين ترتبط بالتمويل الغربي أو بالشراكة مع منصَّات إعلامية وترفيهية عالمية؛ حيث تسهم في نشر أنماط قيميَّة محدَّدة (مثل "حقوق الفرد"، أو «حرِّية الهُويَّة الجندريَّة»، أو «التنوُّع الثقافي»)، والتي تتقاطع غالبًا مع المصالح الجيوسياسيَّة للغرب، وبالأخص الولايات المتحدة.

٣ - نظريَّةُ تصنيعِ القبولِ، (تشومسكي-Noam Chomsky) و(هيرمان- Edward S. Herman)

في كتابهـما المشـترك "تصنيع القبول: الاقتصاد السـياسي لوسـائل الإعـلام الجماهيرية" (١٩٨٨)، يُحلل (نعوم تشومسـكي) و(إدوارد هيرمان) كيف أن الإعلام الغربي يُستخدم لإنتاج

1 - Antonio Gramsci: Selections from the Prison Notebooks, p 57.

2 - Joseph S. Nye: Soft Power The Means to Success in World Politics, pp. 34-36.

القبـول الجماهيري بسياسـات النخب، من خلال "نمـوذج "الدعاية"[1]. ويُظهـر الكاتبان أن التمويل، والإعلانات، والانتقائية الإخبارية كلَّها أدوات تتحكم في الرسـالة الإعلامية، وتجعل الجمهور يتقبل سردية السلطة كما لو كانت "حقيقة موضوعية".

عند إسقاط هذه النظرية على عمل منظَّمات المجتمع المدني في الفضاء الرقمي، نجد أن كثيراً منها يشارك -عن وعي أو دون وعي- في إعادة إنتاج هذا "القبول" للسياسات والقيم الغربية، من خلال دعم محتـوى "ترفيهي"، "ثقافي"، أو "توعوي" يتبنَّى الفرضيَّات الليبراليَّة أو النيوليبراليَّة نفسها، مثل الحرية الفردية المطلقة، أو تحييد المرجعيات الدينية، أو نقد الأدوار التقليدية للأسرة.

٤ - نظريَّةُ الاستعمارِ الثقافيِّ – ما بعد الكولونياليَّة (Post-colonialism)

تُـبرز نظريَّات ما بعدَ الاسـتعمار، وخصوصًا عند المفكِّرين مثل (إدوارد سـعيد)، وف(رانتز فانـون- Frantz Fanon)، و(غاياتـري سـبيفاك-Gayatri Chakravorty Spivak)، فكـرة أن الاستعمار لا ينتهي بخروج الجيوش، بل يستمر عبر فرض نماذج ثقافية، وقيمية، ومعرفية غربية على المجتمعات "المُسـتَعمَرة" سابقًا. يُعرف هذا بـ«الاستعمار الثقافي»؛ حيث يجري تذويب الهويَّـات المحلِّية وإعادة تكوينهـا وفق رؤية الغرب[2]. وفي هذا السـياق، يمُكن اعتبار تدخُّل منظَّـمات المجتمع المـدني في توجيه أدوات الترفيه ووسـائل التواصـل الاجتماعي جزءًا من المرحلة الجديدة من الاستعمار الثقافي؛ حيث تُعاد صياغة الأذواق، والأخلاق، وأنماط الحياة، في المجتمعات غير الغربية، من خلال أدوات تبدو محلِّية لكنَّها مموَّلة وموجَّهة خارجيًّا.

إنَّ هذا الإطار النظريَّ والمنهجيَّ لا يُستخدم فقط لفهم العلاقة بين منظَّمات المجتمع المدني والمنصَّات الرقمية، بل يكشف أيضًا أن هذه العلاقة تحمل طابعًا بنيويًّا يتجاوز النوايا المعلنة. فهي تمثِّل تفاعلاً بين رأس المال الرمزي، والسلطة الخطابية، والتمويل الجيوسياسي. لذا، فإن تحليل هـذا التفاعل يتطلَّب تجاوز التحليل التقني أو القانوني، والتوجُّه إلى تحليل بنيوي ثقافي نقدي، يفتح الأفق أمام مساءلة السلطة الرمزية التي تُمارَس باسم "الحرِّية"، و"التنوُّع"، و"التمكين".

1 - Noam Chomsky and Edward S. Herman: Manufacturing Consent: The Political Economy of the Mass Media, pp12-15.

2 - Edward W. Said: Orientalism, p 89.

ثانيًا: الخلفيَّةُ والسِّياقُ العامُّ

يهدف هذا المبحث إلى تقديم السِّياق التاريخي والمعاصر لتمدُّد منظَّمات المجتمع المدني من العمل في المجال الحقوقي والسياسي إلى الهيمنة الثقافية والرقمية، مسلِّطًا الضوء على التحوُّلات في التمويل والوظيفة، والتَّغلغل في أدوات الترفيه ووسائل التواصل الاجتماعي. يُبرز التَّحليل كيف أصبحت هذه المنظَّمات فاعلاً مركزيًّا في توجيه السلوك الاجتماعي والتصوُّرات القيميَّة، خاصَّة لدى الأجيال الجديدة.

١. نشأةُ منظَّماتِ المجتمعِ المدنيِّ وتطوُّرها

أ. من الحقوقِ السياسيَّةِ إلى الثقافيَّةِ والاجتماعيَّةِ

تطوَّرت منظَّمات المجتمع المدني منذ بداياتها بصفتها مؤسَّسات معنيَّة بالدفاع عن الحقوق السياسية والمدنية (مثل حرِّية التعبير، والحقِّ في التنظيم، ومراقبة الانتخابات...)، إلى منظَّمات ذات طابع شمولي ثقافي واجتماعي بعد نهاية الحرب الباردة. هذا التوسُّع في المهام لم يكن بريئًا، بل ترافق مع تغيرُّ أولويات الجهات المانحة الغربية التي أصبحت تولي أهميَّة لموضوعات «النوع الاجتماعي»، و«التمكين»، و«التعدُّدية الثقافية»، و«حقوق الأقليات»[1].

هذا التحوُّل من النضال السياسي إلى العمل الثقافي والاجتماعي ترافق مع ظهور مخطَّطات عابرة للحدود، تهدف إلى إعادة تكوين الهُويَّات والقيم المجتمعية على أسس ليبراليَّة جديدة، في كثير من الأحيان تصطدم بالثَّقافات المحافظة والدينية.

ب. التَّمويلُ الأجنبيُّ ودورُه في إعادةِ توجيهِ الأولويَّاتِ

أحد أهمِّ المحدِّدات التي أثَّرت في مسار منظَّمات المجتمع المدني هو التمويل الأجنبي، سواء من الحكومات الغربية USAID أو EUGIZ أو منظَّمات دوليَّة كبرى Open Society Foundations Ford أو Rockefeller Foundation . هذا التمويل غالبًا ما يُمنح بشروط، أو في سياقات تنافسية، ما يدفع المنظَّمات لتكييف أجنداتها مع أولويَّات المانحين[2].

1 - L. M. Salamon: The Rise of the Nonprofit Sector, pp109–122.

2 - D. Rutzen: Aid barriers and the rise of philanthropic protectionism, pp 5–44.

وعليه، ظهر ما يمكن تسميته بـ «استلاب استقلالية القرار الثقافي» داخل هذه المنظَّمات؛ حيث أصبحت تمثل امتدادًا ناعمًا للنفوذ السياسي الغربي، مستخدمة شعارات حقوق الإنسان والتنوُّع باعتبارها أدوات لإعادة تكوين السلوك والذوق العام عبر الثقافة الرقمية. هذا يعني أنَّ منظَّمات المجتمع المدني، رغم ادعائها الاستقلالية والتمثيل المحلِّي، تفقد حرِّيتها الحقيقية في تحديد أولويَّاتها الثقافية وخطابها القيمي، نتيجة الخضوع لتأثيرات خارجية، غالبًا تتمثل في التمويل الأجنبي المشروط، والاعتماد على شراكات مع مؤسَّسات إعلامية دولية. وربما أكثر من ذلك من خلال الانضواء ضمن شبكات خطابية أمميَّة تفرض مخطَّطات معيَّنة. أي إن قرارات هذه المنظَّمات – من حيث ما الذي يُروَّج له، وما الذي يُستبعَد – لم تعد تُبنى على أسس محلِّية نابعة من حاجات المجتمع أو خصوصيَّاته، بل تُوجَّه بشكل غير مباشر (وأحيانًا مباشر) من قبل الجهات التي تملك التمويل أو المنصَّة أو النفوذ الرمزي.

من هذا المنطلق، يجري عبر التمويل المشروط، الطلب من المنظَّمة التركيز على قضايا مثل الجندرة، والمثليَّة، والحرِّيات الفردية، مقابل الدعم المالي. ويُستبعَد أو يُهمَّش الاهتمام بالقضايا الثقافية المحلِّية أو الهُويَّتية أو الدينية؛ لأنها لا تندرج ضمن "أولويات المانحين". أمَّا عبر الخطاب المؤسَّسي الدولي، فتُضطرُّ المنظَّمات لمواءمة خطابها مع اللغة الحقوقية الغربية (freedom, inclusion, gender justice...) حتى لو كانت لا تتماشى مع بنية المجتمع. كما تفقد المبادرة في صياغة خطاب ثقافي مستقلٍّ يعبرِّ عن السياق المحلِّي. وتذهب هذه المنظَّمات المدنية عبر تكوين وتكوين تحالفات مع شركات إعلامية كبرى: مثل Netflix وMeta (فيسبوك وإنستغرام)، حيث يصبح المحتوى الذي تنتجه المنظمة جزءًا من سياسات المنصَّة وتوجُّهاتها، لا من قراراتها الذاتية.

٢. التمدُّدُ في الفضاءِ الرَّقميِّ والتَّرفيهيِّ: من النَّشاطِ المدنيِّ إلى التَّوجيهِ الثَّقافيِّ النَّاعم

مع صعود التكنولوجيا الرقميَّة وانتشار ثقافة الإنترنت، شهدنا تحوُّلًا جوهريًّا في أدوات ومنهجيَّات عمل منظمات المجتمع المدني. فبعد أن كانت هذه المنظمات تشتغل ضمن أطر تقليدية كالنَّدوات، والحملات الحقوقية، والتَّقارير السياسية، أصبحت تنخرط بعمق في المجال الرَّقميِّ والفضاء الترفيهيِّ، مستفيدة من الطبيعة البصريَّة والجماهيريَّة للمنصَّات الجديدة في

إعادة تكوين الوعي والسُّلوك والقيم، لا سيما في أوساط الشباب.

إن هذا التحوُّل لم يكن عفويًّا، بل جاء نتيجة إدراك استراتيجي بأن المعركة على الهُويَّة والقيم تجري اليوم في ساحة الثقافة الرقميَّة، لا في الميادين السياسية أو المؤسَّسات القانونية. من هنا، دخلت منظَّمات المجتمع المدني في تحالفات متنوِّعة مع شركات الإعلام الكبرى، واستخدمت أدوات مثل المؤثِّرين والخوارزميَّات والمحتوى القصير للوصول إلى أهدافها القيمية بأقلِّ تكلفة وأكبر تأثير.

أ. شراكاتٌ مع شركاتٍ إعلاميَّةٍ وفنِّيَّةٍ Netflix، YouTube...

لقد أصبحت كبرى شركات الإعلام الرقمي شريكًا رئيسًا لمنظَّمات المجتمع المدني في تنفيذ مشاريع توعويَّة وقيميَّة، تدَّعي الحياد، لكنها غالبًا ما تنطوي على توجيه أيديولوجيٍّ ناعم وممنهج.

- Netflix، على سبيل المثال، دخلت في شراكات مع منظَّمات مثل GLAAD و Human Rights Campaign لدمج تمثيل واضح ومكرَّر لمجتمع الميم والمتحوِّلين جنسيًّا في إنتاجاتها الأصليَّة، ليس باعتبارها عناصر ثانويَّة، بل بنية محوريَّة داخل الحبكة الدراميَّة. هذه العملية تُعرف بـ «التَّطبيع السردي»؛ حيث تُقدَّم الهُويات الجندريَّة بوصفها جزءًا من الحياة اليوميَّة المقبولة اجتماعيًّا.[1]
- YouTube عبر مبادرة Creators for Change يدعم صانعي محتوى، يعملون على تعزيز مفاهيم مثل "مكافحة خطاب الكراهية" و"الاندماج الثقافي"، وهي مفاهيم حمَّالة أوجه عدّة، يُعاد تعريفها في السِّياق الليبراليِّ الغربي، لتبرير استبعاد الخطابات الدينية أو المحافظة من المجال العام.

إن هذه الشراكات لا تمثِّل فقط دعمًا لحرِّية التعبير، بل تعني في كثير من الحالات إدماجًا منظَّمًا لرسائل أيديولوجية داخل بنية المحتوى الترفيهي، بحيث يبدو المحتوى متحرِّرًا ومحايدًا، فيما هو في الحقيقة مؤطَّر ثقافيًّا، وموجَّه على نحو ناعم وعابر للوعي[2].

1 - Netflix Inclusion Reports.

2 - YouTube Creators for Change – Google Impact Report.

ب. دعمُ حملاتٍ رقميَّةٍ موجَّهةٍ عبر TikTok، Instagram، Facebook

أدركـت منظَّمات المجتمع المدني مبكرًا، أن السـيطرة على الوعي الثقـافي تتطلَّب تكييف خطابها مع منطق المنصَّات الرقمية، لا مجرَّد نقل خطابها الكلاسيكي إلى الإنترنت.

- TikTok وInstagram، تعتمـد المنظَّـمات على التحدِّيات الشـبابية والفيديوهات القصيرة المليئة بالإثارة، ممَّا يجعل الرسـائل القيمية تبدو جزءًا من الترفيه، لا خطابًا توجيهيًّـا. وإنَّ كثـيراً من حملات «التنـوُّع» و«التمكين الجندري» تُقـدَّم بلغة مرحة وسريعة تنتشر دون مقاومة نقدية.
- Facebook، تتعـاون هـذه المنظَّمات مع خوارزميَّات المنصَّـة لترجيح محتواها في التغذية الإخبارية، خاصة عندما تكون مموَّلة من خلال برامج مثل Meta for Good. وبذلك يتحوَّل "المرئي أوَّلًا" إلى "المفروض قيميًّا".

يُنتج هذا التحوُّل إعادة برمجة للذَّوق العام؛ حيث يتشكَّل الرأي الجمعيُّ الجديد ضمن منطق التسويق الثقافي لا التفاعل المعرفي، ما يؤدِّي إلى ترسيخ القيم الجديدة دون أن يدرك المتلقِّي، أنها نتيجة عملية تصميم ثقافي خارجي.

هـذا التركيز على المنصَّات القصيرة والموجَّهة للشَّـباب يضمن التأثـير في الوعي الجمعيِّ الجديد عبر لغة ترفيهيَّة، تسويقيَّة، وخفيفة المضمون – لكنها مُحمَّلة برسائل ثقافية عميقة.

ج. استخدامُ المؤثِّرين والمحتوى القصيرِ بوصفهما أدوات تأثيرٍ سلوكيٍّ

تُعتبر ظاهرة «المؤثِّرين» من أخطر آليات التأثير السلوكي في الثقافة الرقمية المعاصرة. فهؤلاء الأشـخاص، الذين يتمتَّعون بمتابعة جماهيرية واسـعة، لا يملكون بالـضرورة خلفيَّة معرفية أو مسؤولية خطابيَّة، لكنهم يُستثمرون باعتبارهم ناقلين مثاليِّين للرسائل الأيديولوجية بسبب قربهم العاطفي من الجمهور.

يمثِّل هذا الشَّكل من التأثير نموذجًا لما يُعرف بـ «الاستعمار الرمزي»؛ حيث تتحوَّل أدوات الثَّقافة اليومية إلى منصَّات لإعادة تكوين الإدراك والسلوك الجمعيِّ دون وعي واضح أو مقاومة مباشرة.

تُعـدُّ ظاهرة المؤثِّرين الرقميِّين (Influencers) من أبرز أدوات منظَّمات المجتمع المدنيِّ في التأثير غير المباشر. فبدلاً من الخطاب المباشر، تعتمد المنظَّمات على شراكات مع:

- مؤثِّرين في مجالات الموضة أو الجمال أو الكوميديا، يدمجون رسائل توعويَّة عن قضايا معينة، كحقوق الجندر أو مناهضة «العنف القيمي».
- منشئي محتوى في مجالات الألعاب والتَّرفيه، يُطلب منهم التحدُّث عن «التنوُّع» أو «رفض التَّنميط»، غالبًا بدعم ماليٍّ مباشر أو غير مباشر من برامج شراكة مع منظَّمات دولية.

من هنا، يتحوَّل الفعل الثقافي إلى أداة لتطبيع القيم الجديدة، دون الحاجة إلى خطاب سياسي أو صدامي، ما يُدخل التأثير في اللا وعي الجماهيري بطريقة سلسة وخطيرة في آن.

يُـبرز هذا المبحث كيف تحوَّلت منظَّمات المجتمع المدنيِّ من كيانات حقوقية إلى فاعلين ثقافيِّين رقميِّين، يملكون القدرة على إعادة هندسة الوعي الجمعي من خلال أدوات خفيفة، جذابة، ولكن ذات فاعلية عالية. إن التلاقي بين التمويل السياسي، والتحالف مع المنصَّات الرقمية، وتوظيف المؤثِّرين، يكشف عن نمط جديد من الهيمنة الرمزية يعيد تكوين الثقافة المحلِّية بوسائل عابرة للحدود، ما يستدعي تحليلاً نقديًّا عميقًا لتفكيك هذه الشَّبكات وتداعياتها.

ثالثًا: أدواتُ التَّرفيهِ ووسائل التواصل الاجتماعي بوصفهما قنوات تأثيرٍ

أصبحت أدوات التَّرفيه ووسائل التواصل الاجتماعي اليوم أدواتٍ رئيسة لاختراق المجتمعات وتوجيه وعيها الجمعي، بحيث لم تعد هذه الوسائط تكتفي بأداء دورها التقليدي في التَّرفيه أو التفاعل الاجتماعي، بل أصبحت قنوات ذات إطار ثقافيّ محدَّد لإعادة تكوين الرأي العام، ونشر منظومات قيميَّة جديدة. تستثمر منظَّمات المجتمع المدني في هذه القنوات باعتبارها أكثر الوسائل فاعليَّة لتغيير السلوك، وتطبيع أفكار وقيم تُصنَّف في الغالب "حداثيَّة" أو "تقدميَّة" وفق المفهوم الليبرالي الغربي.

١ - وسائل التواصل الاجتماعي، إعادةُ تكوين الرأي العامِّ

أ. كيف تعملُ الخوارزميَّاتُ على تعزيزِ القيمِ التي تدعمها المنظَّماتُ

تعتمد منصَّات مثل Instagram، YouTube، TikTok، وFacebook على خوارزميَّات ذكيَّة

تقوم بترجيح نوعيَّة معيَّنة من المحتوى لتظهرها في صفحات التَّوصيات (Recommendations) والصفحات الرئيسة للمستخدمين. هذه الخوارزميَّات ليست محايدة، بل تُصمَّم بطريقة تجعل المحتوى المتوافق مع "قيم المنصَّة" أو "المموِّلين" أكثر انتشارًا. فعلى سبيل المثال، أظهرت تقارير أن (Meta/Facebook/Instagram) تروِّج محتويات تتعلَّق بـ "تمكين المرأة"، و"دعم مجتمع الميم"، و"مكافحة الكراهية" أكثر من غيرهـا، ضمن برنامج "Meta for Good"Civil Rights Audit".[1]. وبالنسـبة لـ TikTok، وفق دراسـة أجرتها AlgorithmWatch، يرفع المحتويات الداعمة للتنوُّع والهويَّات الجندرية ضمن حملات مثل #ForYouPride و#InclusiveTikTok، ما يعطي حضورًا كبيرًا لهذه القيم في أوساط المراهقين[2].

ب. "الترند" بوصفه وسيلةَ تسويق لقضايا أيديولوجيَّةٍ

«الترند» ليس مجرَّدَ حدث عفويٍّ، بل كثيرًا ما يكون نتيجة تصميم مسـبق من منظَّمات وفرق تسويق رقمية. يمكن لأي قضية – سواء تتعلَّق بالجندرة أو حقوق الأقليَّات – أن تتحوَّل إلى "ترند" إذا ما جرى دعمها بالطرق الآتية:

- استخدام مؤثِّرين رقميِّين ذوي جماهيرية ضخمة.
- ضخ الإعلانات المموَّلة.
- التنسـيق مع المنصَّـات لدفـع الهاشـتاغات (Hashtags) في قوائـم "الأعلى مشاهدة".

مثال على ذلك، حملة «#LoveIsLove" التي أطلقتها منظَّمات حقوقية بالتزامن مع شهر الفخر Pride Month تتحوَّل سـنويًّا إلى ترند عالمي، مدعومة بإعلانـات من YouTube وTikTok، وشراكات مع منصَّات كـ Spotify، Snapchat [3]

فالنتيجة، هي أن الترند لم يعد يعكس فقط المزاج الشعبي، بل بات أداة تسويقية موجَّهة لقيم أيديولوجيَّة معيَّنة، تعيد تكوين السرديَّات الثقافية والاجتماعية لدى الأجيال الجديدة.

1 - Meta: Civil Rights Audit Report (2020).

2 -AlgorithmWatch: (2023, January 30). *How TikTok›s algorithm promotes LGBTQ+ content.

3 - Digital Pride Alliance: Pride Month Digital Campaigns Overview (2023).

٢ - التَّرفيهُ بوصفه منصَّةَ تطبيعٍ ثقافيٍّ

أ. السينما، والمسلسلاتُ، والألعابُ الرقميَّةُ باعتبارها وسائطَ تغليفِ قيمٍ جديدة

لم تعد المنتجات التَّرفيهيَّة (أفلام، مسلسلات، ألعاب فيديو...) روايات للتَّرفيه فقط، بل أصبحت أدوات شديدة الفاعلية في تمرير أجندات ثقافية محدَّدة. في كثير من هذه الأعمال، يجري تغليف رسائل عن الهُويَّة الجنسية، والنَّوع الاجتماعي، والحرِّية الفردية، ومفاهيم الجندرة في قصص درامية جذَّابة، تجعل من تلقِّي هذه القيم جزءًا من التجربة العاطفية للمشاهد.

ومن أبرز الأساليب:

- التَّطبيع السَّردي: جعل شخصية مثليَّة أو متحوِّلة جنسيًّا «بطلة» أو «بطلاً» للقصَّة، بحيث ترتبط الهويَّة الجندريَّة بالإيجابية أو البطولة.
- غياب البديل الثقافيِّ: يجري استبعاد الشخصيَّات المحافظة أو الأطر الدينيَّة أو العائلية من التمثيل الإيجابي.
- الرمزيَّة الثقافيَّة: دمج الرموز (كالألوان، والشِّعارات، والأغاني) التي تعزِّز الهُويَّة الجندريَّة الجديدة ضمن السِّياق العام للفيلم أو اللعبة.

مثال: مسلسل Sex Education من إنتاج Netflix؛ حيث يُعرض الطَّيف الجندريُّ والجنسي بأشكال متعدِّدة، ما يجعل تقبُّل هذه الهُويَّات شيئًا "طبيعيًّا" في وعي المراهقين[1].

ب. دراساتُ حالاتٍ: محتوى داعمٌ للنوُّعِ الاجتماعيِّ، والمثليَّة، والجندرة.

- **المسلسلات والأفلام:**

- (Euphoria) (HBO) يعالج المسلسل قضايا الهوية الجنسية، والإدمان، والتحوُّلات الجندرية، مع شخصيات رئيسة غير نمطيَّة، ما أسهم في إعادة تعريف «الطبيعي» لدى جمهور الشباب.
- (The Owl House) (Disney) سلسلة رسوم متحرِّكة للأطفال تدمج شخصيات غير ثنائيَّة (Non-binary) وتُظهر علاقات عاطفية من الجنس نفسه بين شخصيات مراهقة.

1 - Netflix's Education Viewer Impact Report.

- **الألعاب الرقميَّة:**
  - (The Last of Us II) (PlayStation) بطلة اللعبة مثليَّة، وتُقدَّم علاقتها على أنها طبيعية، بل جزء من البناء العاطفي للمؤامرة السرديَّة.
  - (Life is Strange) لعبة تعتمد على سرديَّة تفاعليَّة، تُتيح للاعب اختيار هُويَّته الجندريَّة، وتدفع للتفكير في "المرونة الجنسية" باعتباره خيارًا حياتيًّا طبيعيًّا.
- **الحملات الرقميَّة:**
  - مبادرة #TransRightsAreHumanRights التي انطلقت على Twitter وInstagram بدعم من منظَّمات مثل Amnesty وHuman Rights Campaign وGLAAD، تُظهر كيف تتحوَّل الحملات إلى مظلَّة ضغط ثقافيٍّ هائل.

يكشف هذا المبحث عن الدَّور الهيكليِّ العميق الذي تلعبه أدوات التَّرفيه ووسائل التواصل الاجتماعي في نقل قيم جديدة داخل المجتمعات وتحفيزها، دون حاجة إلى خطاب سياسي صريح. إنها آليات "التطبيع الثقافي الناعم"، المدعومة بالخوارزميَّات، والمحتوى، والمؤثِّرين، والتي تعمل ضمن منظومة شاملة هدفها إعادة هندسة الوعي الاجتماعي، بدءًا من المراهقين وحتى العائلات.

لتُصبح بذلك منظَّمات المجتمع المدني، عبر هذه القنوات، أداة مركزيَّة في نقل قيم ما بعد الحداثة (postmodern values) من المركز الغربي إلى الأطراف، ما يفرض على المجتمعات تحليلَ هذه الظاهرة لا من منظور حقوقيٍّ فقط، بل من منظور سياديٍّ ثقافي وهُويَّاتي.

رابعًا: أهدافُ منظَّماتِ المجتمعِ المدنيِّ من التوجيهِ الثقافيِّ والإعلاميِّ وتداعياته

تُعدُّ منظَّمات المجتمع المدني من أبرز الفواعل غير الحكومية التي دخلت بقوَّة في المشهد الإعلامي والثقافي خلال العقود الأخيرة؛ حيث لم تكتفِ بدورها التقليدي في الدفاع عن الحرِّيات وحقوق الإنسان، بل تجاوزته إلى توجيه الذَّوق العام وإعادة صياغة القيم الاجتماعية من خلال أدوات ناعمة كالمحتوى الرقمي، والترفيه، والتثقيف الشعبي. ويمكن التمييز بين مستويين من الأهداف:

- أهداف معلنة: تتَّسق ظاهريًّا مع خطاب حقوق الإنسان والتعدُّدية.
- أهداف ضمنيَّة: تعكس توجُّهات أيديولوجية وجيوسياسية أعمق، غالبًا ما ترتبط بأجندات العولمة وإعادة هندسة الهُويَّة المجتمعيَّة.

١ - الأهدافُ المعلنةُ

غالبًـا ما تقدِّم منظَّمات المجتمع المدني تدخُّلها في الشـأن الثقـافي والإعلامي تحت لافتة حماية «حقوق الإنسان الثقافية»، بما يشمل: تمثيل الفئات المهمَّشة: كالأقليَّات العرقيَّة والدينية، ومجتمـع الميم (LGBTQ+)، والأشـخاص ذوي الإعاقة. مضافًا إلى التنـوُّع الثقافي في دعم مبادرات فنِّية وأدبية تعكس تجارب متعددة داخل المجتمع. كما حرِّية التعبير الفنِّي والإعلامي في رفـض الرقابة الخُلُقيَّة والدينية على الإنتاج الثقافي. ومثـال ذلك ما أطلقته منظمة Human Rights Watch من برامج ثقافية في الشرق الأوسط لتعزيز "حرِّية التَّعبير الفنِّي" ضدَّ ما وصفته بـ«الرقابة المحافظـة[١]. كذلـك، تبنَّـت Open Society Foundations، بتمويل من (جورج سـوروس-George Soros)، مبادرات تركِّز على "تنمية الوعي الجندري" في الإعلام والسينما، بوصفه أداة لمقاومة التمييز[٢]. لكن هذا الخطاب المعلن، يخفي في كثير من الأحيان انتقائيَّة في دعم الحرِّيات؛ حيث تُمنح المنصَّة للتيَّارات المتوافقة مع القيم الليبرالية الغربية فقط، فيما يجري تجاهل أو تهميش الأصوات المحافظة أو التقليدية، ما يطرح إشكالاً عن ادعاء الحياد والتعدُّد.

٢ - الأهدافُ الضمنيَّةُ

أ. تفكيكُ النُّظمِ القيميَّةِ للمجتمعاتِ المحافظةِ

من خلال دعم خطاب «التحرُّر الفردي»، تعمل كثير من المنظمات على تفكيك البنية القيميَّة التقليدية التي تسـتند إليهـا المجتمعات المحافظة، كالأسرة، والديـن، والأعراف، والمجتمع. ويجري ذلك عبر نزع الشرعية عن المرجعيات الثقافية التقليدية واتهامها بـ«القمع» و«التمييز». كما يجري عبر تحوُّل الثقافة المحافظة إلى هدف للتهكُّم والنَّقد الدرامي، فيما يُقدَّم نمط الحياة الليبرالي بوصفه رمزًا للانفتاح والتحضُّر.

مثال: يشـهد محتوى نتفليكس في العالم العربي دعمًا متزايدًا لقصص تتحدَّى الأدوار التقليدية للأسرة والمرأة، بالتنسيق مع منظَّمات[٣] مثل Women for Women International وUN Women

1 - Human Rights Watch: (2018, August 16). Egypt: Campaign to crush artistic freedom.

2 - Open Society Foundations: (2023) Arts Exchange and Gender Diversity Program Report.

3 - Netflix & UN Women. Because She Watched Campaign.

ب. خلقُ توافقاتٍ ثقافيَّةٍ جديدةٍ تخدمُ أجنداتِ العولمةِ

يسعى الخطاب الثقافي لمنظَّمات المجتمع المدني إلى إنتاج هُويَّة ثقافية «كونيَّة» جديدة، ترتكز على مفاهيم ما بعد الحداثة: الجندرة، والفردانيَّة، والتنوُّع المطلق، والحرِّية غير المقيَّدة.

- هذه الهُويَّة تتَّسق مع متطلِّبات العولمة النيوليبرالية التي تحتاج إلى سوق مفتوح ثقافيًّا وسلوكيًّا.
- أيُّ مقاومة محلِّية لهذه القيم تُصنَّف ضمن خانة «الرجعية» أو «التطرُّف»، حتى وإن كانت تعبيراً عن إرادة جماعية أو خصوصية ثقافية.

ناقش المفكر الأمريكي (بنجامين باربر - Benjamin Barber) هذه الفكرة في كتابه[1]؛ حيث اعتبر أن العولمة تعمل على خلق "عالم بلا جذور"، يتحوَّل فيه الأفراد إلى مستهلكين للقيم بدلاً من أن يكونوا حامليها.

في تحليله للعولمة (McWorld)، يرى (باربر)، أن الفرد في هذا النظام لم يعد مرتبطًا بمجتمعه المحلِّي، أو ثقافته، أو تاريخه، بل أصبح فردًا معولمًا، و«مستهلكًا للرموز والقيم والسلع والثقافات التي ينتجها المركز العالمي»، خصوصًا الشركات والمؤسَّسات الغربية الكبرى. في هذه الحالة تصبح القيم الخُلُقية، والانتماء الوطني، والدين، والعائلة عناصر ثانوية أو حتى هامشيَّة أمام الثقافة الاستهلاكية العالمية. وبالتالي، ينتج من ذلك تفريغ الهُويَّات من مضامينها الأصلية، وتحويل الأفراد إلى وحدات استهلاكية غير مرتبطة بجذر ثقافي أو اجتماعي.[2]

ج. إضعافُ الهُويَّة الثقافيَّةِ الوطنيَّةِ لصالحِ هُويَّةٍ كونيَّةٍ ناعمةٍ

تتجاوز السياسات الثقافية لعدد من المنظمات البُعد الحقوقي، لتسعى إلى تذويب الحدود بين الهُويَّات الثقافية الوطنية، واستبدالها بمنظومة رمزية كونيَّة ذات مرجعية غربية.

- تتعرَّض اللغة، واللباس، والموسيقى، والعلاقات الاجتماعية لإعادة قولبة وفق «النموذج العالمي».

1 - B. R. Barber: Jihad vs. McWorld: How globalism and tribalism are reshaping the world, p.65.

2 - B. R. Barber: Jihad vs. McWorld: How globalism and tribalism are reshaping the world, p85.

- يؤدِّي هذا إلى اضْمحلال الشعور بالانتماء الوطني والثقافي، ويُضعف المناعة الذاتية للمجتمعات تجاه الاستتباع الثقافي.

مثال: برامج مثل Voices of Youth (اليونيسف) تشجِّع التعبير "العابر للثقافات" وتدفع الشباب للتفكير في هُويَّتهم باعتبارهم «مواطنين عالميين»، بعيدًا عن الانتماءات القوميَّة أو الدينية[1].

إن تحليل أهداف منظمات المجتمع المدني في المجال الثقافي يكشف عن تناقض مركزي بين الشعارات المعلنة والتأثيرات الواقعية. ففي حين ترفع شعارات الحقوق والتنوُّع، فإن النتائج الفعلية تشير إلى عمليات إعادة تكوين ثقافي موجَّهة، تتجاوز التعدُّد لتصل إلى إلغاء الهُويَّات الفرعية والسيادية للمجتمعات.

يدفعنا هذا المسار إلى التساؤل حول من يتحكَّم في الخطاب الثقافي العالمي، ولمصلحة من تجري إعادة إنتاجه؟ وما آليات الحماية الثقافية التي تمتلكها المجتمعات أمام هذا الزحف "الناعم"؟

٣ - دراسةُ حالاتٍ تحليليَّة

يشكِّلُ الرَّبط بين منظمات المجتمع المدني ومنصَّات التَّرفيه والتَّواصل الاجتماعي مدخلاً ضروريًّا لفهم آليات التأثير الثقافي والإعلامي في العصر الرقمي. ومن خلال دراسة هذه الحالات، يمكن رصد كيفية توظيف هذه الأدوات لتطبيع قيمٍ ومفاهيمَ معيَّنة، وتجاوز الحواجز الثقافية التقليدية داخل المجتمعات، لا سيما المحافظة منها.

أ. حالةُ Netflix ومنظَّمة GLAAD: التَّرويجُ لخطابِ المثليَّة عبر الإنتاجِ الفنِّيِّ

تُعد GLAAD (Gay & Lesbian Alliance Against Defamation) من أبرز منظَّمات الضغط الإعلامي في الولايات المتحدة، وقد أبرمت شراكات معلنة مع منصَّات إعلامية كبرى، أبرزها Netflix، بهدف دمج تمثيلات إيجابية لمجتمع الميم في المحتوى الترفيهي.

في تقارير سنوية مثل Where We Are on TV، تصدر GLAAD تقويمات مفصَّلة للشركات

1 - UNICEF: (2023). *Voices of Youth – Global Citizenship Campaign.

الإعلامية بناءً على عدد الشـخصيَّات المثليَّة أو العابرة جنسـيًّا التي تظهر في الأعمال الدراميُّة، وتضغط من أجل رفع نسـب تمثيلهم[1]. مثال: في عام ٢٠٢١، أفـادت GLAAD بأن Netflix تصدَّرت منصَّات البثِّ من حيث عدد الشـخصيات المثليَّة والمتحوِّلة، بنسبة ٣٨٪ من إجماليِّ الشخصيات في الأعمال الأصلية.[2]

- **الآليات المستخدمة:**

- إدراج شخصيات «كويريَّة» ضمن القصص العامَّة، بما يجعلها جزءًا طبيعيًّا من الحياة اليومية. حيث تشير هذه العبارة إلى استراتيجية سردية تستخدمها شركات الإنتاج الفنِّي مثل Netflix وDisney ومنظمات المجتمع المدني الداعمة لحقوق الجندرة والميول الجنسـية غير النَّمطيَّة؛ حيث يجري إدخال شخصيات تنتمي إلى فئة "الكوير" – أي من لا يعرِّفون أنفسـهم ضمن الأطر التقليدية للجنس (ذكر/أنثى) أو الميول الجنسية (مغاير/مثْلي). لا تُقدَّم هذه الشخصيات بشكل استثنائي أو هامشي، بل تُدمج داخل القصَّة باعتبارها جزءًا عاديًّا من المجتمع – أي باعتبارهم أصدقاء، وأبطالاً، وشركاء، وزملاء عمل، إلخ. كما تُقدَّم حياتهم وميولهم وعلاقاتهم باعتبارها أمورًا "طبيعية" لا تثير جدلاً داخل سياق القصَّة، كأن المجتمع كلّه قد تقبَّل ذلك دون مقاومة. إنَّ الهدف من هذه التقنيَّة السرديَّة هو "تطبيع" وجود الشخصيات الكويريَّة في أذهان الجمهور؛ بحيث تصبح رؤيتها أمرًا يوميًّا معتادًا، وتُرفع عنها صفة الغرابة أو الاستثناء. مضافًا إلى زرع القيم المتعلِّقة بالجندرة والسيولة الجنسية ضمن وعي المتلقِّي دون الحاجة إلى خطاب صريح، من خلال العاطفة أو التعاطف مع الشخصية.
- ربط الهُويَّة الجنسية بقيم إيجابية مثل الشجاعة، الاستقلال، والتمرُّد على القيود.
- تحويل الاعتراضات الثقافية أو الدينية إلى مواضيع للسُّخرية أو التشكيك.
- هذا التوجُّه يعزِّز تطبيع المثليَّة بوصفها "واقعًا عالميًّا"، ويدفع المشـاهد، خاصة في المجتمعات المحافظة، إلى إعادة النظر في مسـلَّماته القيميَّـة. كما يفتح الباب أمام صراعات ثقافية داخلية في تعريف الهُويَّة والأسرة والدين.

1 - GLAAD. Where We Are on TV Report.

2 - The Guardian: «Netflix tops LGBT+ representation in new GLAAD report.

ب. حملاتُ الأممِ المتَّحدةِ على TikTok عن النَّوعِ الاجتماعيِّ: كيف تُستخدمُ المقاطعُ القصيرةِ لتغييرِ السُّلوكِ واللُّغةِ.

في السنوات الأخيرة، أصبحت TikTok منصَّة محوريَّة في حملات التوعية الثقافية والسلوكية، خاصة بين المراهقين. وقد تعاونت مؤسَّسات الأمم المتحدة، لا سيما UN Women وUNDP، مع المؤثِّرين على TikTok لنشر رسائل عن "الجندرة"، و"الهُويَّة الذاتية"، و"تفكيك التقاليد الضَّارَّة"[1].

مثال: حملة "Generation Equality" التي أطلقتها الأمم المتحدة استخدمت TikTok عبر مؤثِّرين من الوطن العربي لنشر رسائل حول "التَّمكين الجندري" و"رفض المعايير المجتمعيَّة المقيِّدة"[2].

- **الآليات المستخدمة:**
  - مقاطع قصيرة وسريعة؛ تتضمن تحدِّيات أو موسيقى شعبية.
  - توظيف لغة غير تصادميَّة ظاهريًّا، لكنَّها تحمل مضامين نقدية عميقة للبنى التقليدية.
  - استخدام رموز "ترنديَّة" تُضفي على الرسائل الطابع المرح والجذَّاب، وتخفي الطابع الإيديولوجي خلفها.

تؤثِّر هذه الحملات في اللغة والمفاهيم المستخدمة في الحياة اليومية؛ إذ تنتشر كلمات مثل «التَّمكين»، «غياب المعياريَّة»، و«الجندرة»، في أوساط الشباب بشكل تلقائي، دون وعي بالمنظومة الفلسفية التي تقف خلفها. كما يجري خلق انقسام بين الجيل الشاب ومرجعيَّاته المجتمعيَّة والدينية.

ج. مؤسَّسات مثل Open Society وUSAID: تمويلُ برامجَ ثقافيَّةٍ وفنِّيةٍ في الوطنِ العربيِّ

يُعتبر تمويل الفنون والإعلام أحد أبرز مجالات تدخُّل Open Society Foundations (الممولَّة من جورج سوروس) ووكالة التنمية الأمريكية USAID في الشرق الأوسط وشمال أفريقيا. وفق تقارير من هذه المؤسَّسات، يجري تمويل برامجَ تدعم:

- مهرجانات سينمائية وفنية تروِّج لحرِّية التعبير الجندري.
- مشاريع تدريب إعلامي لفئات شبابية، تُدعم فيها قيم مثل «التعدُّد الجندري»، و"الهُويَّة الفردية".

1 - UN Women: Using TikTok to Empower Gender Equality Awareness.

2 - UNDP Arab States: Social Media Toolkit for Gender Justice in the MENA Region.

■ إنشاء شبكات إعلامية بديلة تهدف إلى «كسر السيطرة التقليدية على الفضاء الثقافي»[1].

مثال: دعمت Open Society مهرجان "أيام كويريَّة" في تونس ولبنان، وهو حدث فنِّي يروِّج للمثليَّة والهُويَّة الجندريَّة عبر عروض سينمائية ونقاشات[2]. كما موَّلت USAID مشروع "نحن نكتب" في الأردن لدعم محتوى رقمي نَسَويٍّ تقدُّمي.

● **الآليات المستخدمة:**

■ التَّمويل المشروط: يجري ربط الدَّعم المالي بضرورة دمج مفاهيم «التنوُّع» و«حقوق الأقليَّات الجنسية».

■ بناء تحالفات مع منظمات محلية، مما يعطي الانطباع أن التغيير "نابع من الداخل".

■ دعم مساحات إعلامية "بديلة" خارج سيطرة الدولة أو المؤسسة الدينية.

تُحدث هذه المشاريع تحوُّلات ثقافية تدريجية داخل المجتمعات، وغالبًا ما تُستخدم كأدوات ضغط على الحكومات لإدخال تعديلات قانونية تتوافق مع مفاهيم «النَّوع الاجتماعي»، و«التعبير الجنسي»، رغم تعارضها مع البنى القانونية والثقافية المحلِّية. تكشف هذه الحالات الثلاث عن نمط مركَّب من التأثير الثقافي الناعم الذي يجمع بين:

■ التمويل الغربي المشروط.

■ استخدام أدوات جذَّابة وسريعة (الميديا، الفن، الترند).

■ خطاب ليبرالي مغلَّف بمفاهيم حقوق الإنسان، لكنَّه يخفي نزعة استتباعيَّة ثقافية.

وتمثِّل هذه الإستراتيجيات نموذجًا معاصرًا من الهيمنة الثقافية، لا تُفرض بالقوَّة، بل تُزرع بالتدريج داخل العقول والنفوس، غالبًا عبر الجيل الشاب.

خامسًا: التداعياتُ المجتمعيَّةُ والثَّقافيَّةُ

يمثِّل التدخُّل الثقافي لمنظَّمات المجتمع المدني عبر أدوات التَّرفيه ووسائل التواصل الاجتماعي عملية تحويل ناعمة ((Soft Transformationللمجتمعات، خاصَّة في الدول المحافظة. ويكمن الخطر في أنه لا يتَّخذ طابعًا صداميًّا مباشرًا، بل يعمل على تفكيك البنى

1 - Open Society Foundations: Arts & Culture Programs in MENA.

2 - Human Rights Watch: Pride and Pressure: LGBTQ Rights in the Arab World.

القيمية والرمزية للمجتمع من الداخل، عبر استهداف الفئات الأكثر قابلية للتأثُّر: الشباب.

تشير الدراسات إلى أن منصَّات مثل TikTok وInstagram، بدعم غير مباشر من منظَّمات المجتمع المدني، أصبحت قنوات مركزية لإعادة تعريف مفاهيم رئيسة، مثل:

- الحرِّية الفرديُّة: تتحوَّل إلى رفض كامل للسلطة الأسريَّة والدينية.
- الجنس: يُعرض بوصفه خيارًا شخصيًّا متحرِّرًا من البيولوجيا أو القيم الدينية.
- الدين: يُصوَّر بوصفه موروثًا تقليديًّا "قمعيًّا".
- الأسرة: تُقدَّم في الخطاب الليبرالي الجديد بوصفها خيارًا اجتماعيًّا، لا ضرورة وجودية أو خُلُقيَّة.

وفي دراسة أجراها مركز Pew Research عام ٢٠٢٢ على شباب من ١٧ دولة، أظهر ٦١٪ من المشاركين أنهم أصبحوا أكثر "تقبُّلاً للهُويَّات الجنسية غير التقليدية" بسبب المحتوى الذي يستهلكونه على الإنترنت.[1] هذه الظاهرة لا تقتصر على التقبُّل، بل تمتد إلى إعادة تكوين الهُويَّة الذاتية؛ حيث تُعرض "الهُويَّة الجندرية" بوصفها تجربة وجودية، لا حقيقة بيولوجية.

١ - تفكُّكُ القيمِ الجمعيَّةِ وظهورُ النَّزعةِ الفردانيَّةِ

أحد أخطر تداعيات هذا التوجيه الثقافي هو تفكيك البنى الجمعيَّة، مثل الهُويَّة الوطنية، والرَّوابط الدينية، والانتماء المجتمعي، لصالح ما يمكن تسميته بالنَّزعة الفردانيَّة المعولمة. وحيث تتلاشى الحدود بين «الصَّواب والخطأ» لتُستبدل بمعايير «الحرِّية الشخصية»، لتصبح الهُويَّة الفردية أكثر أهمية من الهُويَّة العائلية أو الدينية.

من هنا، يُنظر إلى الالتزام الخُلُقيّ باعتباره مجردَ "خيار" يمكن تركه متى شاء الفرد. تقول الباحثة في السوسيولوجيا الثقافية (نانسي فريزر-Nancy Fraser): إن "الليبرالية الجديدة لم تنجح فقط في إعادة توزيع الثروات، بل في إعادة توزيع الرموز والمعاني بما يخدم منطق السوق والفردانيَّة"[2].

---

1 - Pew Research Center: Social Media Use and Identity Among Youth.

2 - Nancy Fraser: Fortunes of Feminism: From State-Managed Capitalism to Neoliberal Crisis, p22.

٢ - ردودُ الأفعالِ: تنامي الخطابِ المحافظِ أو المتطرِّفِ باعتباره مقاومةً

في كثـير من المجتمعات، لا يُقابل التغيير الثقافي بهدوء، بـل يولِّد نوعين من المقاومة: من التيَّارات المحافظة التي تؤكِّد على إعادة التمسُّك بالدين، والأسرة، والعادات التقليدية ردًّا على الغزو الثقافي. مضافًا إلى التطرُّف الديني أو الأيديولوجي؛ حيث يلجأ بعض الشباب إلى التشدُّد ردًّا على فقدان التوازن القيمي، أو بسبب الشعور بالاستلاب والغربة عن الذات. ففي دراسة قدَّمها مركز راند في ٢٠٢١ تشـير إلى أن تسـارع التغيُّرات الثقافية المفروضـة خارجيًّا أدى إلى ارتفاع معدَّلات الانضمام إلى جماعات محافظة أو دينية متشدِّدة في شمال أفريقيا والشرق الأوسط[١].

عكسهذه الظاهرة ت فشل الاستيعاب الثقافي المفروض، وتدلُّ على أن المجتمعات عندما لا تجد خطابًا متَّزنًا يحميها من التفكُّك، قد تلجأ إلى خطابات الهُويَّة المتطرِّفة باعتبارها درعًا ثقافيًّا.

التأثيراتُ السياسيَّة: تبنِّي بعضِ الحكوماتِ سياساتٍ تطبيعيَّةٍ أو مقاومةٍ

ردود الأفعال الحكومية تتباين بين ثلاثة نماذج:

- الاسـتجابة التطبيعيَّة: فبعض الدول (مثل كندا أو دول أوروبية) تتبنَّى بشـكل رسمي خطاب «النوع الاجتماعي»، وتُدخل تعديلات قانونية ودستورية لتعزيز هذا التوجُّه. مضافًـا إلى تمويل حكومـي مباشر للمهرجانـات، والإنتاجات الفنِّيـة، والمقرَّرات التعليمية ذات البعد الجندري أو الهُويَّتي.
- الممانعة المقيَّدة: فدول عربية (مثل مصر والمغرب) تتبنَّى سياسات إعلامية متحفِّظة، لكن تسـمح بهوامش ليبرالية ناعمـة. مضافًا إلى ازدواجية خطابيَّة: خطاب رسـمي محافظ، مقابل تساهل غير مباشر مع المحتوى العالمي.
- المقاومة الصَّريحة: فدول مثل روسيا أو بعض الدول الإسلامية (إيران، ماليزيا) تبنَّت سياسـات صارمة ضد ما تسـمِّيه «الاختراق الثقافي الغربي». كما سنَّت قوانين تمنع التَّرويج للمثليَّة أو المحتوى الجندري في المدارس والإعلام.

مثال: في ٢٠٢٢، سنَّت روسيا قانونًا يجرِّم «نشر دعاية المثليَّة» على المنصَّات الرقمية ووسائل الإعلام، معتبرة ذلك تهديدًا للهُويَّة القوميَّة.[٢]

1 - RAND Corporation: Cultural Change and Radicalization in the MENA Region, pp. 11-12.

2 - BBC News: Russia Passes Law Banning 'LGBT Propaganda' Among Adults.

ويتَّضح أن تدخُّل منظَّمات المجتمع المدني في الفضاء الثقافي والإعلامي ليس مجرَّد عمل حقوقيٍّ أو توعويٍّ بريء، بل يمثِّل تدخُّلاً استراتيجيًّا يعيد تكوين البنى الرَّمزية للمجتمعات من الداخل.

٤ - إضعاف المرجعيَّات التقليديَّة (الدِّين، الأسرة، اللُّغة).

وذلك من خلال:

- تفكيك الهُويَّة الجمعيَّة.
- توليد صراعات قيميَّة بين الأجيال.
- تحفيز انقسامات اجتماعية قد تؤدِّي إلى تشدُّد أو ردٍّ عنيف.

وبالتـالي، فإن تقويم هذا الدور يتطلَّب وعيًا نقديًّا لا يتوقَّف عند النوايا المعلنة، بل يتجاوزها إلى تحليل البنى الخطابيَّة والمؤسَّسية التي تنتج هذا التأثير.

رغـم تبنِّي منظَّمات المجتمـع المدني خطابًا مثاليًّـا قائمًا على الدفاع عـن الحرِّيات، والتنوُّع، وحقوق الإنسـان، لكنَّ تمويلها يأتي في كثير من الحـالات من جهات حكومية ذات مخططات جيوسياسـية واضحة، ما يخلق فجوة بين المعلـن والمضمر. من الأمثلة على هذا التناقض:

* منظَّمة Freedom House تمُوَّل جزئيًّا من وزارة الخارجية الأمريكية والـ USAID، لكنها تروِّج لخطاب "استقلالية المجتمع المدني".
* مؤسَّسـات مثل Open Society Foundations التي يموِّلها (جورج سوروس)، تدعم حركات احتجاجية أو برامج ثقافية في دول تعتبرها الإدارات الغربية خصمةً أو بحاجة لإعادة هندسة مجتمعية.

يشـير الباحـث «Clifford Bob" إلى أن "المنظَّـمات الحقوقية في حـالات عديدة لا تكون مستقلة، بل تشارك في شبكات من النُّفوذ السياسي الدولي".[1] هناك تسييس للخطاب الحقوقي؛ إذ يتم توظيف مفاهيم العدالة والحرِّية لإعادة ترتيب الحقول القيميَّة في مجتمعات معيَّنة، وليس بشكل محايد أو عالمي.

1 - Clifford Bob: The Marketing of Rebellion: Insurgents, Media, and International Activism, p15.

ورغم أن مبدأ الشـفافيَّة يُعدُّ من القيم التأسيسـية لعمل منظَّمات المجتمع المدني، فإن عددًا من هذه المنظَّمات لا تكشف بشكل واضح عن:

- مصادر تمويلها الفعلية (خصوصًا التمويل المشروط).
- آليات اتِّخاذ القرار داخلها.
- معايير اختيار الشَّراكات الإعلامية أو الفنِّية.
- طريقة إنتاج المحتوى «التوعوي» على المنصَّات.

في تقرير لمنظَّمـة Transparency International عن "شـفافيَّة المنظَّمات غير الحكومية الدوليـة" (٢٠٢٠)، لوحظ أنَّ أكثر من ٧٠٪ من هذه المنظَّـمات لا تنشر تقارير مالية تفصيلية، ولا توضح علاقة التَّمويل بالأهداف البرامجية.[١]

هذا الغموض يطرح سـؤالًا خُلُقيًّا: مـن يراقب "الرقيب الثقافي" الجديـد؟ ومن يضمن ألَّا تتحوَّل هذه المنظَّمات إلى أدوات لاختراق المجتمعات تحت غطاء التَّنوير؟

إنَّ من أخطر الإشكاليات المرتبطة بمنظَّمات المجتمع المدني العاملة في الحقل الثقافي هي افتراضهـا أن النموذج القيمي الغربيَّ هو النمـوذج "الطبيعي" أو "الأرقى" الذي يجب تعميمه، متجاهلة الخصوصيَّات الثقافية والهُويَّات المحلِّية.

ومن مظاهر التحيُّز القيمي:

- ترويـج الهُويَّـة الجندريَّة بوصفها هُويَّة فرديـة مرِنة، دون النظـر إلى الأطر الدينية أو الثقافية في المجتمعات المستهدفة.
- تسـويق حرِّية التعبير بوصفها مطلقة، حتى حين تمسُّ الثَّوابـت الأخلاقية أو الدينية لمجتمعات أخرى.
- تجاهل السِّـياقات التاريخية والاجتماعية للمجتمعات غـير الغربية، وفرض مفاهيم «عالمية» بصياغة غربية.

تقول الباحثة الهندية (جاياتري سـبيفاك -Gayatri Spivak): إن «الخطاب الحقوقي الغربي كثيراً ما يمارس استعمارًا ثقافيًّا ناعمًا؛ إذ يتكلم باسم الآخر دون أن يسمح له بالكلام عن نفسه»[٢].

1 - Transparency International: NGO Accountability and Transparency Report.

2 - G. Chakravorty Spivak: Can the Subaltern Speak?

هذا التصدير غير المتوازن للنموذج الثقافي يؤدِّي إلى:

- اغترابٍ داخليٍّ لدى شرائحَ من الشباب عن هُوياتهم الأصلية.
- صراعٍ بين الأجيال في المفاهيم الخُلُقية والاجتماعية.
- تحوُّلات سريعة وفوقيَّة لا تمرُّ عبر الوسائط الطبيعية للتطوُّر المجتمعي.

إن نقد منظَّمات المجتمع المدني في هذا السِّـياق لا يعني نفي دورها الحقوقي أو التنموي، بل يعني مسـاءلتها حين تتحوَّل من فاعل مدني مستقلٍّ إلى أداة ضمن منظومة جيوثقافيَّة عالمية لها أهـداف أبعد من الحقوق والعدالة. من هنا، ثمَّة ضرورة لإعادة طرح سـؤال: هل نحن أمام مجتمـع مدني، أم مجتمع موجَّه خارجيًّا بقوالب ناعمة؟ هل هذه المنظَّمات تمثِّل المجتمعات التـي تعمل فيها، أم تمثِّل الجهات التي تموِّلهـا؟ وهل يمكن حقًّا فصل الخطاب الحقوقي عن البنية التمويلية والسِّياسية التي تحكمه؟

الخاتمةُ

خلُـص هذا البحثُ إلى مجموعة من النتائج المحوريَّة التي تكشـف أبعـادًا متعدِّدة ومعقَّدة للدور الذي تلعبه منظَّمات المجتمع المدني في الحقل الإعلاميِّ والثَّقافيِّ الرَّقميِّ.

أبرز هذه النتائج:

تحـوُّل منظَّمات المجتمع المدني مـن أدوار تنمويَّة تقليديـة إلى أدوار ثقافيَّة عميقة التأثير، بحيث لم تعد مجرَّد مراقب حقوقي، بل فاعل نشِط في هندسة الذَّوق العامِّ والسُّلوك الاجتماعي.

وجود ارتباط وثيق بين تمويل هذه المنظَّمات وأجندات قوى سياسيَّة واقتصادية دولية، الأمر الذي يطعن في استقلالية خطابها، ويحوِّل بعض أنشطتها إلى أدوات ناعمة للتأثير الجيوسياسيِّ.

أدوات التَّرفيه ووسـائل التواصل الاجتماعي تُستخدم بوصفها منصَّات لتسويق قوالب قيميَّة جديدة – مثل سـيولة الهُويَّة، والفردانيَّة، وحرِّية الجندر، إلخ – على حساب المرجعيَّات الدينية والثقافية للمجتمعات المحافظة.

تأثير هذه العمليات أشـدُّ ما يكون على الفئات العمريَّة الشَّابة؛ إذ تبيِّن مؤشِّرات ميدانية بروز تغيُّرات واضحة في المفاهيم المرتبطة بالدين، والأسرة، ومفهوم الذَّات، والحدود الخُلُقيَّة.

ردُّ الفعل الاجتماعـي تراوح بين القبول التكيُّفي، والرفض المحافـظ، والتطرُّف المقاوم، ما يشير إلى صدام بين «هندسة القيم» من أعلى، والأنساق المحلِّية من أسفل.

عدم شـفافيَّة هذه المنظَّـمات في أهدافها وتمويلها وخطابها الإعلامـي يحدُّ من مصداقيَّتها ويعزِّز الشكَّ في كونها أدوات ناعمة للعولمة الثقافية والاقتصادية.

المراجع والمصادر

- A. Gramsci: Selections from the prison notebooks (Q. Hoare & G. Nowell Smith, Eds. & Trans.). International Publishers, 1971.
- C. Bob: The marketing of rebellion: Insurgents, media, and international activism. Cambridge University Press, 2005.
- D. Rutzen, Aid barriers and the rise of philanthropic protectionism. International Journal of Not-for-Profit Law, 17(1), 5–44, 2015.
- E. W. Said, Orientalism. Pantheon Books, 1978.
- G. C. Spivak: Can the subaltern speak? In C. Nelson & L. Grossberg (Eds.), Marxism and the interpretation of culture (pp. 271–313). University of Illinois Press, 1988.
- J. S. Nye: Soft power: The means to success in world politics. Public Affairs, 2004.
- J. Smith: The rise of NGOs in digital culture. Journal of Global Media, 12(1), 2020.
- L. Johnson: Cultural normalization in streaming media. Cultural Studies Quarterly, 18(4), 2021.
- Meta Platforms: Civil rights audit report. https://about.fb.com/wp-content/uploads/202007//Civil-Rights-Audit-Final-Report.pdf.
- N. Chomsky & E. S. Herman: Manufacturing consent: The political economy of the mass media. Pantheon Books, 1988.
- N. Fraser: Fortunes of feminism: From state-managed capitalism to neoliberal crisis. Verso Books, 2013.
- Pew Research Center: Social media use and identity among youth, 2022

- RAND Corporation: Cultural change and radicalization in the MENA region, 2021.
- S. Ahmed: NGOs and cultural imperialism. International Journal of Cultural Studies, 22(3), 2019.
- Transparency International: NGO accountability and transparency report, 2020.